الإمام الجنيد بن محمد
وبعض الشخصية الصوفية

د. طه حسين الدسوقى

مدرس العقيدة والفلسفة

تمهيد :

إن الكتابة عن العظماء تحتاج إلى وقت وجهد، واحتياجها إلى الوقت إنما هو لإعطاء فسحة كافية لكى يعيش الإنسان فترة حتى يستطيع أن يهضم وأن يتكيف ، والهضم والتكيف هما أهم مؤهلات الكاتب الذى يريد أن يفلسف حياة إنسان له وزنه فى عصره الذى عاشه ، وتأثر فيه ، واحتياج الكاتب للجهد هو احتياج ضرورة لجمع المادة اللازمة حول الشخصية المراد الكتابة عنها .

وإمامنا الجنيد يضيف ثقلا معينا ويحمل من يريد الكتابة عنه مسؤلية البحث المضنى والاستنباط والتحليل حتى يمكن أن يخرج برسم معين مقبول عن شخصيته .

ولقد كان الجنيد ذا حساسية دينية عالية ، الأمر الذى دفعه لكى يطمس كل آثاره العلمية تقريبا ، ويرفض أن يلقى ربه وقد ترك علما إلى جوار علم رسول الله ﷺ .

يقول الشعرانى فى طبقاته حـ ١ صـ ٨٤ ، ٨٥ :

(وحكى أنه لما حضرته الوفاة أوصى أن يدفع معه جميع ما هو منسوب إليه من علمه ، فقيل له ولم ذلك ، فقال : أحببت أن لا يرانى الله تعالى وقد تركت شيئا منسوبا إلى ، وعلم رسول الله ﷺ بين أظهر الناس) .

هذا فعل من الإمام الجنيد قد ضاعف الجهد فى البحث عن شخصيته، واستكناهه الحقائق التى تحيط بها .

وثمة عامل آخر هو أن الإمام الجنيد لم يكن متحققا فقط، وإنما كانت الشريعة إلى جوار الحقيقة فهو متصوف فقيه محدث عالم بالأصول، وتعدد جوانب الشخصية على هذا النحو يستلزم كثيرا من التخصصات، فهو يحتاج إلى عالم فى الحديث ورجاله لكى يقيمه من هذه الزاوية، ويحتاج إلى ملكة قوية لكى تقيمه فى علم الكلام، كما يحتاج إلى خبير ذى لحظ قوى له دربة خاصة فى مجال علم التصوف لكى يستنبط كلامه، ويستكشف المعانى التى تقبع وراء سجن الألفاظ . هذا بالإضافة إلى أنه كان عالما بعلوم الألفاظ والأساليب، كما كان يتقن الصياغة، ويحكم الحجة، وهذه كلها جوانب فى الشخصية تحتاج إلى الكثير والكثير من التخصصات المختلفة .

يقول الخطيب البغدادى فى تاريخ بغداد حـ ٧ ص ٢٤٣، ٢٤٤ :

(أخبرنا إسماعيل أخبرنا محمد بن الحسين قال : سمعت أبا سعيد البلخى يقول : سمعت أبا الحسين الفارسى يقول : سمعت أبا القاسم الكعبى قال: رأيت لكم شيخا ببغداد يقال له الجنيد بن محمد ما رأت عيناى مثله، كان الكتبة يحضرونه لألفاظه، والفلاسفة يحضرونه لدقة معانيه، والمتكلمون يحضرونه لزمام علمه، وكلامه بائن عن فهمهم وكلامهم وعلمهم .

وقال محمد بن الحسين سمعت عبد الله بن على يقول : سمعت الجنيد يقول : رأيت فى المنام كأن النبى ﷺ أخذ بعضدى من خلفى، فما زال يدفعنى حتى أوقفنى بين يدى الله تعالى . فسألت جماعة من أهل العلم فقالوا: إنك رجل يقود العلم إلى أن تلقى الله تعالى) .

ولو كان هذا فقط لكان كافيا فى تصوير شخصية تكتنفها الصعوبات من كل جانب، غير أن الجنيد وهو شخصية صوفية تحتاج إلى فهم دقيق

من هذا الجانب، لأن الحقيقة وأصحابها يميلون فى أكثر الأحيان إلى الرمز والألغاز، فليس المعنى الذى يقصدون إليه منحصرا داخل إطار اللفظ الضيق، ومسجون ضمن دلالة معينة لحروف تلك الألفاظ، ولكن الألفاظ عندهم لها دلالة خاصة ومفهومات يقصدونها، ولا يتحملها اللفظ الذى يستخدمونه فى التعبير عنها .

والجنيد ليس واحدا عاديا من هؤلاء المتصوفة، ولكنه إمام عصره وشيخ وقته، حقيقة أن الإمام الجنيد كان يقول بالصحو ولم يترك نفسه يوما ينطق بلسان السكارى الذين ألهاهم الوجد فأخرجهم عن نطاق الصحو إلى حال السكر، ولكنه بالرغم من ذلك كان يقول كلمات يحتاج فهمها إلى نوع استنباط ودقة ملاحظة .

وقصارى القول فى هذا المجال أن نردد ما ذهب إلى الأستاذ نيكلسون فى محاضراته فى التصوف الإسلامى، ماخلاصته أنه ليس من المعقول أن ننتظر من الآثار التى يتركها الصوفى ترجمة وافية لجميع أقطار شخصيته، ولكن يكفينا منها أن تكون مادة نستنبط منها ما يرسم حدودا واضحة لشخصية صاحبها .

حياة الجنيد

في القرن الثالث الهجرى لمع اسم أبي القاسم الجنيد كأحد أعلام الصوفية المبرزين في نواحى العلم والمعرفة .

أصله من نهاوند ، ولكن مولده ونشأته كانت ببغداد .

اشتهر أبوه ببيع الزجاج ، ولذا نجد بعض المؤرخين ينسبه إلى هذه المهنة « الزجاج ، القواريرى » .

أما هو فلم يمتهن مهنة أبيه ، وإنما عمل خرازا ، ونسب إلى هذه المهنة .

ولد ونشأ في بيت علم بالشريعة ، ووقوف على أسرار الحقيقة ، وجد مناخا ملائما ، وتربة صالحة لظهور نبت وليد ، رقيق الحواش مطبوعا على صفاء النفس . وشفافية الحس .

فمنذ صباه المبكر لزم خاله السرى السقطى يحاكيه فيما يعمل ، ويتعهده خاله بالنصح والتربية .

ثم أتيح له بعد ذلك مصاحبة ذوى الفضل المبرزين في التصوف منهجا وتطبيقا ، فصحب كذلك الحارث المحاسبي ، ومحمد بن على القصاب .

ثم درس الفقه على مذهب الإمام أبي ثور وتتلمذ عليه وهو في سن مبكرة حتى برز فيه ، وكان يفتى بحضرته وهو ابن عشرين .

يقول الإمام القشيرى في تسجيله لهذه الفترة من حياته .

(« منهم أبو القاسم الجنيد بن محمد » سيد هذه الطائفة وإمامهم أصله من نهاوند ومنشؤه ومولده بالعراق ، وأبوه كان يبيع الزجاج فلذلك يقال

القواريرى ، وكان فقيها على مذهب أبي ثور ، وكان يفتى في حلقته بحضرته وهو ابن عشرين سنة)(١) .

وفي طبقات الشعراني قال :

(« ومنهم سيد الطائفة أبو القاسم الجنيد بن محمد الزجاج رضى الله عنه » كان أبوه يبيع الزجاج فلذلك يقال له القواريرى أصله من نهاوند مولده ومنشؤه بالعراق ، وكان فقيها يفتى الناس على مذهب أبي ثور صاحب الإمام الشافعي وراوى مذهبه القديم ،

صحب خاله السرى السقطى والحارث المحاسبي ومحمد بن على القصاب وكان من كبار أئمة القوم وساداتهم وكلامه مقبول على جميع الألسنة)(٢).

وقريب من هذا الكلام ما ذكره جمال الدين أبي الفرج بن الجوزى عن هذه الفترة(٣) .

ويقول ابن خلكان عن نشأة الجنيد :

(أبو القاسم الجنيد بن محمد بن الجنيد الخراز القواريرى الزاهد المشهور أصله من نهاوند ومولده ومنشؤه العراق ، وكان شيخ وقته وفريد عصره ، وكلامه في الحقيقة مشهور مدون ، وتفقه على أبي ثور صاحب الإمام الشافعي رضى الله عنهما ، وقيل بل كان فقيها على مذهب سفيان الثورى

---

(١) الرسالة القشيرية في علم التصوف لأبي القاسم عبد الكريم هوازن القشيرى — ص ١

(٢) طبقات الصوفية — للشعرانى — جـ ١ ص ٨٣ :

(٣) أنظر صفة الصفوة جـ ٢ ص ٤١٦ :

رضى الله عنه ، وصحب خاله السرى السقطى ، والحارث المحاسبى ، وغيرهما من جلة المشايخ رضى الله عنهم وصحبه أبو العباس بن سريج الفقيه الشافعى)(١) .

وهذه النصوص وأشباهها من أحاديث مؤرخى التصوف عن هذا العلم من أعلامه لا تعطى صورة مكتملة الملامح بحيث تصور هذه الحياة الممتدة لشخصية مثل الجنيد .

كما أنها لا تكون سلسلة متصلة الحركات بحيث تعبر عن مراحل فكرية تدرج فيها شيخ الصوفية وإمامهم .

وقصارى ما تحمله هذه النصوص هو أنها تسجل جزءا من حياته العلمية ونسبه المقتضب وبيئته بلا استطراد أو كثير إيضاح :

ولعلنا نعلم أن هذا النمط من الإغفال المتعمد يرجع إلى نكران الذات الذى كان يتشح به أرباب التصوف الصادق على العموم ،

عاش الجنيد متدرجا فى مقاماته متقلبا فى أحواله ، يراقب ربه مراقبة الصادقين ، ويقول فى التصوف وفى ضروب العلم والمعرفة بكلام العارفين العاملين .

ولما أوشك القرن الثالث أن ينتهى أفل نجم الجنيد قبل أن ينقضى العقد الأخير من القرن الثالث الهجرى .

فوفاة الجنيد لم يتفق عليها بين مؤرخى التصوف ، غير أن الخلاف فيها لم يكن متباعدا فيما ينص عليه العلماء :

---

(١) وفيات الأعيان جـ ١ ص ١٤٦

فالأمر بينهم دائر بين أن تكون وفاته فى سنة سبع وتسعين ومائتين ، أو ثمان وتسعين ومائتين ، وإن كان الرأى الأول هو الذى عليه أكثر المؤرخين .

يقول ابن خلكان عن وفاته :

(وتوفى يوم السبت وكان نيروز الخلفية سنة سبع وتسعين ومائتين ، وقيل سنة ثمان وتسعين آخر ساعة من نهار الجمعة ببغداد ودفن يوم السبت بالشونيزية(١) : عند خاله سرى السقطى رضى الله عنهما ، وكان عند موته رحمه الله تعالى : قد ختم القرآن الكريم ، ثم ابتدأ فى البقرة فقرأ سبعين آية ثم مات)(٢) .

وفى طبقات الصوفية :

(مات رضى الله عنه يوم السبت سنة سبع وتسعين ومائتين وقبره ببغداد ظاهر يزوره الخاص والعام)(٣) .

ويعتبر الصوفى نفسه فى حياته حريصا كل الحرص على آدابه مع المشرع ومع الشريعة .

غير أن الجنيد لم يقتصر على مراعاة هذه الآداب فى حياته ، ولكنه حرص

---

(١) والشونيزية ، بضم الشين المعجمة وسكون الواو وكسر النون وسكون الياء المثناة من تحتها ، وفى آخرها زاى هى مقبرة مشهورة ، ببغداد بها قبور جماعة من المشايخ رضى الله عنهم بالجانب الغربى — وفيات الأعيان — جـ ١ — ص ١٤٧

(٢) وفيات الأعيان — ابن خلكان جـ ١ ص ١٤٧

(٣) طبقات الصوفية للشعرانى ص ٨٣ جـ ١

كل الحرص أن لا يكون له علو كعب فى مجال العلم والمعرفة ، وأن لا ينسب إليه من الآراء ، أو الاجتهادات لا فى حياته ، ولا بعد مماته مادامت الشريعة قد استكملت روايتها الصحيحة عن صاحب الشرع نفسه .

وإذا كان موقفه كمرب قد فرض عليه أن يلقى بآرائه بين أتباعه ، وأن يوجه نصائحه لمريديه فإن شعوره الدين قد دفعه إلى أن يوصى بهذه الوصية التى حكاها عنه مؤرخو التصوف :

قال الشعرانى :

(وحكى أنه لما حضرته الوفاة أوصى يدفن معه جميع ما هو منسوب إليه من علمه فقيل له ولم ذلك فقال أحببت أن لا يرانى الله تعالى : وقد تركت شيئا منسوبا إلى وعلم رسول الله ﷺ بين أظهر الناس)(١) .

ولقد استطاع الجنيد أن يدعم مكانته كإمام للصوفية فى حياته .

وهذه المكانه الممتازة التى تصل إلى درجة الإمامة لها خطر عظيم فى تربية النشىء ، وتقوية الجانب الروحى فى نفوس الأتباع والمريدين ، لدرجة أنهم يلقون بقيادهم بين يدى هذه الزعامة ، ويسلمون لها التصرف فى كل ما يأتون ، وما يدعون من الأفعال ، بحيث لا يتصرفون إلا طبقا لرغبة هذه الزعامه .

وهذا التسليم قد يكون له خطر من جانب أخر ذلك أنه لو قدر لهذه الزعامة أن تختفى ويسدل عليها الستار ، يفقد الأتباع والمحيطون المحور الذى كانوا يلتقون حوله فينصدع جمعهم ويتفرق شملهم .

ولقد أدرك الجنيد أن أتباعه قد يتعرضون إلى مثل هذه الهزة ، فأوصى بعض أتباعه أن يجمع شمل المريدين بعد أن يواروه التراب ، غير أن الأتباع

(١) الطبقات للشعرانى ص ٨٤ ، ٨٦ ج ١

وهو أبو محمد الحريرى كان يشك فى أن يوفق إلى مثل هذا المطلب لتحققه من أن الجنيد كان يحتل مكانة ممتازة بين أتباعه لا يشغلها غيره :

وبيان ذلك فى رواية التاريخ أن الإمام الجنيد (لما حضرته الوفاة دخل عليه أبو محمد الحريرى رضى الله عنه فقال : ألك حاجة قال : نعم إذا مت فغسلنى وكفنى وصل على فبكى الجريرى وبكى الناس معه ، ثم قال له الجنيد: وحاجة أخرى فقال : وما هى ، فقال فتتخذ لأصحابنا طعام الوليمة فإذا انصرفوا من الجنازة رجعوا إلى ذلك حتى لا يقع لهم تشتيت فبكى الجريرى ، ثم قال : والله لئن فقدنا هاتين العينين لما اجتمع منا إثنان أبدا ، قال أبو جعفر الفرغانى فكان والله كذلك الأمر بعد وفاة الجنيد . وإنما كان كذلك الاجتماع ببركة الشيخ ووصيته رضى الله عنه قال الجريرى ، وكان فى بجوار الجنيد رجل مصاب فى خربة فلما مات الجنيد رحمه الله تعالى ودفناه ورجعنا من جنازته تقدمنا ذلك المصاب فصعد موضعا عاليا وقال : يا أبا محمد أترانى أرجع إلى تلك الخربة وقد فقدت ذلك السيد ، ثم أنشأ يقول :

وا أسفى من فراق قوم   هم المصابيح والحصون
والمدن والمزن والرواس   والخير والأمن والسكون
لم تتغير لنا الليالى   حتى توفتهم المنون
فكل جمر لنا قلوب   وكل ماء لنا عيون

قال . ثم غاب عنا فكان ذلك أخر العهد رضى الله تعالى عنه)(١) .

ولقد ظل الجنيد حريصا كل الحرص أن يلفظ أخر أنفاسه على طاعة الله مهما كلفه من جهد ومشقة ، وأن لا يترك للمرض فرصة ليكون عاملا مثبطا عن عاداته فى العبادة .

(١) صفة الصفوة — ج ٢ — ص ٢٣٨

يقول إسماعيل بن نجيد : (ودخل عليه أبو العباس بن عطاء على الجنيد وهو فى النزع فسلم عليه فلم يرد عليه ثم رد عليه بعد ساعه وقال اعذرنى فإنى كنت فى وردى ثم حول وجهه إلى القبلة وكبر ومات رحمة الله)(١) .

(وقال أبو محمد الجريرى كنت واقفا على رأس الجنيد فى وقت وفاته وكان يوم جمعه وهو يقرأ القرآن فقلت يا أبا القاسم ارفق بنفسك فقال : يا أبى محمد ما رأيت أحدا أحوج إليه منى فى هذا الوقت وهو ذا تطوى صحيفتى .

وعنه قال : حضرت عند الجنيد قبل وفاته بساعتين فلم يزل باكيا ساجداً فقلت له يا أبا القاسم قد بلغ بك ما أرى من الجهد فقال يا أبا محمد أحوج ما كنت إليه هذه الساعة فلم يزل يا كيا وساجدا حتى فارق الدنيا .

وعن فارس بن محمد — على — قال كان أبو القاسم الجنيد كثير الصلاة ثم رأيناه فى وقت موته وهو يدرس ويقدم إلى الوسادة فيسجد عليها فقيل له ألا روحت عن نفسك فقال طريق وصلت به إلى الله لا أقطعه) .

---

(١) صفة الصفوة — جـ٢ — ص ٢٣٨ :

الجنيد واشتغالة بالعلوم

لقد نشأ الجنيد بن محمد فى بيئة العراق فى وقت متأخر نسبيا حتى عده السلمى فى طبقاته من رجال الطبقة الثانية .

وهذا التأخير فى المولد والنشأة له دلالته الهامة .

فهو قد ظهر فى العراق بعد أن تحددت ملامح هامه لعدة مدارس مختلفة فى التصوف والفقه وفى الحديث وغير ذلك .

ولقد كان من الطبيعى أن يتأثر الجنيد بهذه الاتجاهات مع اختلاف درجة التأثر .

غير أن ملامح الشخصية فيه تحتاج إلى مهلة من الوقت لكى تعبر عن نفسها فى شىء من التحديد والامتياز .

الجنيد والفقه :

ولقد حاول الجنيد منذ صباه المبكر أن يتعلم الفقه فدرسه على يد أبى ثور ، ولقد بذل فيه الجهد والوقت حتى علا فيه كعبه ، ووقف على أسراره ودقائقه ، فتصدى للفتوى بمجلس أستاذه وهو ابن عشرين عاما ، كما يقول المؤرخون(١) .

ولقد أثرت دراسته للفقه تأثيرا بالغا كأساس هام فى تكوين شخصية الجنيد حتى بعد أن تحددت ملامحها وإتجاهاتها فى الزهد والتصوف ، حيث ظل وفيا لهذه الدراسة محترما لها على مدى حياته كلها(٢) .

---

(١) أنظر ابن الجوزى جـ٢ ص ٢٣٩ ، وطبقات الصوفية للسلمى ص ٣٦

(٢) الحلية لأبى نعيم ص ٢٥٥ ، فى ترجمة الجنيد

إلا أن الجنيد لم يظهر لنا كشخصية تمتاز بالفقه والفتوى ولا مال هو إلى تحديد شخصية على هذا النحو الذى ينتمى إلى معسكر الفقهاء .

وقصارى ما يمكن قوله أن الجنيد قد اندفع بالفقه فى حدود صبغة تشمله هو شخصيا ، وتشمل أتباعه الذين تتلمذوا على يديه بغير خروج على ما يبدو عن المذهب الذى تتلمذ عليه .

الجنيد والحديث :

ولقد إنتشر علم الحديث فى العراق وكثر المشتغلون به بل يعتبر أحد أئمة التصوف وكبار الزهاد المشهود له بين المؤرخين وهو سفيان الثورى من المشتغلين بالحديث ، بل يعتبر الإمام الضليع فى هذا الفن فى زمانه .

وكان المشتغل بالحديث يعتبر ذا مكانة إجتماعية ممتازة إذا هو أراد هذه المكانة للناس أو السلطان .

وهو صاحب مكانة ممتازة فى الفقه وعلوم السلوك إذا هو أراد دراسة الحديث لذلك .

وكيف لا يكون الأمر على هذا النحو وعلم الحديث يعتبر الأصل التشريعى الثانى فى الإسلام ، الذى تأسس عليه بصحبة القرآن العقائد والسلوك .

وفى نفس الوقت فإن الاشتغال بالحديث كان ولا يزال يحتاج إلى مواصفات خاصة من الطبائع والهمم .

وجماع القول أن دراسة الحديث كانت أملا وضرورة للمشتغلين بالفقه ، وكان العلم به أمرا محتوما للزهاد والعباد لا يمكنهم الاستغناء عنه إلا إذا كان الزهد والعبادة مظهرا يستر جوهرا مخالفا للشريعة وتعاليم الإسلام .

ويتبين من هذا أن اشتغال مثل الجنيد بالحديث دراسة وتعلما أمر ليس بالغريب على البيئة الاجتماعية كما أنه ليس بالغريب على طبيعة الجنيد .

طلب الحديث كما طلب الفقه ، وتعمق فيه كما تعمق فى الفقه .

ولكنه لم يشتغل بالحديث وعلمه ، وهاجر إلى جمعه ولقاء رجاله ، ثم جلس فى حلقات المسجد لتدريسه وتعليمه لتلامذته .

أما الجنيد فلقد تعلم الحديث ودرس أصوله وإتجاهاته .

إلا أنه لم ينقل عنه أنه راو للحديث ، ولا هو قد انتدب نفسه لهذه المهمة .

وكل ما روى عنه حديث أو حديثان على أكثر تقدير .

جاء فى صفة الصفوة .

(أسند الجنيد الحديث عن الحسن بن عرفة .

قال المصنف رحمه الله : أخبرنا أبو منصور الصرار قال : أنبأ أحمد بن على ابن ثابت ، قال أخبرنا أبو سعد الماليني ، قال أنبأ أبو القاسم عمر بن محمد ابن مقبل ، قال : أنبأ جعفر الخلدى ، قال : أنبأ الجنيد بن محمد ، قال : حدثنا الحسن بن عرفة ، قال : أنبأ محمد بن كثير السكونى عن عمرو بن قيس الملائى عن عطية ، عن أبى سعيد الخدرى ، قال رسول الله ﷺ : « اتقوا فراسة المؤمن فإنه ينظر بنور الله ، ثم قرأ : « إن فى ذلك لآيات للمتوسمين » .

قال أبو بكر الخطيب : لا يعرف للجنيد غير هذا الحديث .

قال المصنف : قلت : وقد رويت له حديثا آخر : أخبرنا محمد بن عبد الباقى قال : أنبأ رزق الله بن عبد الوهاب ، قال : أنبأ أبو عبد الرحمن السلمى قال : أنبأ أحمد بن عطاء الصوفى قال : أنبأ محمد بن على بن الحسين قال : سئل الجنيد عن الفراسة ، قال : فقال : أنبأ الحسن بن عرفة قال : ثنا أبو بكر بن عياش عن زر ، عن عبد الله قال : كنت أرعى غنما لعقبة بن أبى معيط - وذكر الحديث وقال فى آخره : قال لى النبى ﷺ : إنك عليم معلم)(١)

---

(١) ابن الجوزى - جـ٢ - ص ٢٣٩

وهذه الندرة في رواية الحديث تعتبر مبررا كافيا لذلك الإغفال المتعمد الذى تعمده بعض المؤرخين حين ترجموا للجنيد مع عدم ذكر روايته للحديث .

ويتأتى على رأس القائمة لأهمية خاصة العلامة الحافظ بن كثير .

لقد ترجم للجنيد فى البداية والنهاية فلما تعرض لعلاقته بالحديث قال:

(. . وسمع الحديث من الحسين بن عرفة)(١) .

ولم يتعرض ابن كثير كما ترى للجنيد كراوى للحديث لعدم اكتنابه هذه الصفة .

إلا أن دراسته للحديث كانت تشكل لديه أهمية أخرى ، خصوصا بعد لكشف ملامح شخصيته الصوفية .

فالحديث والفقه والقرآن أمور هامة لخواص المسلمين وعامتهم يفقدون شخصيتهم إن هم عزفوا عن دراستها وتعلمها .

ولذلك ترى الجنيد يقول : (من لم يحفظ القرآن ولم يكتب الحديث لا يقتدى به فى هذا الأمر لأن علمنا هذا مقيد بالكتاب والسنة).

ويقول (مذهبنا هذا مقيد بأصول الكتاب والسنة) .

وقال : (علمنا هذا مشيد بحديث رسول الله ﷺ)(٢) .

---

(١) البداية والنهاية جـ ١١ صـ ١١٣

(٢) أنظر الرسالة القشيرية صـ ٢٢

« ملامح الشخصية الصوفية فى فكر الجنيد »

إن رسم ملامح الشخصية الصوفيه قبل عصر الجنيد وأثنائه وبعده تأخذ صوراً متعددة ، وتعبر عن جوانب فى معظم الأحيان تكون مثيرة للقلاقل والفتن لما تعبر عنه من آثار الشطح ومجافاة لظاهر الشريعة .

ولقد كان مثل هذه الشخصيات كثيراً مايثير غضب الجماهير من المسلمين والخاصة من علماء أصول الدين .

غير أن هذه لم تكن الصفة المسيطرة على جميع المشتغلين بالتصوف والمهتمين به علما وعملا .

ومن أهم المميزات الأساسية للإمام الجنيد أنه قد اهتم بظاهر الشرع واعتنى به إعتناء شديداً بحيث جعله المحور الأساسى ، والعماد الذى يرتكز عليه المتصوف إذا أراد أن يحتفظ لنفسه بشىء من الواقعية والجدية .

فالشريعة والحقيقة إذن عنصران يمتزجان فى أتون المحبة والشوق لينتجا شخصية الصوفى الذى يكون حسن العلاقة بخالقه ، وبالمجتمع من حوله .

وفى تكوين شخصية الصوفى ورسم ملامحها يتعرض الإمام الجنيد إلى مجموعة من العناصر الجوهرية التى لاغنى عنها ، إذا أردنا أن نرسم شخصية نمتاز بملامحها بعيدة عن التشويه والمسخ .

وهذه العناصر يظهرها لنا الإمام الجنيد فى شخصه أولا كعمل تطبيقى رائع ، ثم فى مجموعة من الكلمات المأثورات عنه ، والتى تعبر بكمال عن شخصيته الصوفية ، إذا هى وجدت الوحدة الموضوعية التى تؤلف بينها بدلا

من حشدها حشداً فى بطون أمهات الكتب المعنية بالتصوف ، بغير رابط أو جامع .

والتصوف باعتباره علاقة بين الإنسان وخالقه على مستوى أكبر من العلاقات العادية ، فهى لا يصح أن تبنى أو تشيد على جهل بهذه العلاقة التى ينبغى أن يحفظها العلم من الإنحراف وترعاها المعرفة من الزلل .

ولذا فإن العنصر الأول البارز فى شخصية الصوفى هو المعرفة بعلوم الشريعة معرفة كاملة بقدر الطاقة البشرية .

والمعرفة بعلوم الشريعة تحتاج إلى بذل المجهود فى تعلم الحديث النبوى الشريف وحفظ القرآن الكريم ، والوقوف على معناه ، ودراسة الفقه ، والتعمق فى مسائله .

وهذه العلوم لا تخلص إلى إنسان إلا إذا توفر على دراسة علوم أخر تتعلق باللسان العربى مثل البلاغة والنحو والعرف . . إلخ .

وهى كذلك لا تخلص إليه إلا إذا توفر على قانون دراسة الحديث وعلوم القرآن ، وشىء من أصول الدين .

وهذه مسئولية قد اضطلع بها الإمام الجنيد منذ شبابه المبكر ، فهو قد عرف صلة القرآن والفقه بالتصوف ، وربط بينهما ربطا شديداً لم ينهارن فيه حتى آخر حياته .

فهو يقول :

(الطرق كلها مسدودة على الخلق . . إلا من اقتفى أثر الرسول ﷺ واتبع سنته ، ولزم طريقته . فإن طرق الخيرات كلها مفتوحة عليه)(١) .

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى — ص ٢٧ .

وقال فيما رواه البغدادى : (أخبرنا أبو نعيم الحافظ قال سمعت على بن هارون الحربى ومحمد بن أحمد بن يعقوب الوراق يقولان : سمعنا أبو القاسم الجنيد بن محمد غير مرة يقول : علمنا مضبوط بالكتاب والسنة من لم يحفظ القرآن ويكتب الحديث ولم يتفقه لا يقتدى به)(١) .

وقال : (حدثنا أبو القاسم عبد الرحمن بن محمد عبد الله السراج — بنيسابور — قال سمعت عبد الله بن على السراج يقول سمعت عبد الواحد بن علوان الرحبى قال : سمعت الجنيد بن محمد يقول : علمنا هذا — يعنى علم التصوف — مشبك بحديث رسول الله ﷺ)(٢) .

ولقد حرص الجنيد كذلك على علو الكعب فيما يدرس أو يتناول من العلوم سواء كان فى علوم الدين والشريعة ، أو فى العلوم العربية باعتبارها لغة القرآن الحديث .

ولقد لحظ جلساؤه ذلك التنوع فى معارفه والعمق فى دراسته .

حكى البغدادى قال :

(أخبرنا إسماعيل أخبرنا محمد بن الحسين قال سمعت أبا سعيد البلخى يقول سمعت أبا الحسين الفارسى يقول سمعت أبا القاسم الكعبى قال : رأيت لكم شيخاً ببغداد يقال له الجنيد بن محمد ما رأت عيناى مثله كان الكتبة يحضرونه لألفاظه والفلاسفة يحضرونه لدقة معانيه والمتكلمون يحضرونه لزمام علمه وكلامه بأن عن فهمهم وكلامهم وعلمهم(٣) .

---

(١) تاريخ بغداد أو مدينه السلام — للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى — ص ٢٤٣ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٤٣ .

(٣) نفس المرجع ص ٢٤٣ .

(حدثنا أحمد بن جعفر بن محمد عبيد الله المنادى قال : كان الجنيد بن محمد بن الجنيد قد سمع الحديث الكثير من الشيوخ وشاهد الصالحين وأهل المعرفه ورزق من الذكاء وصواب الجوابات فى فنون العلم ما لم يرى فى زمانه مثله عند أحد قرنائه ولا ممن أرفع سناً منه ممن كان ينسب منهم إلى العلم الباطن والعلم الظاهر فى عفاف وعزوف عن الدنيا وأبنائها . لقد قيل لى: إنه قال ذات يوم : كنت أفتى فى حلقه أبى ثور الكلبى الفقيه ولى عشرون سنه . وروى بالسند عن أحمد بن عطاء الصوفى يقول : كان الجنيد يتفقه لأبى ثور ويفتى فى حلقه أبى ثور بحضرته :

أخبرنى أحمد بن على المحتسب حدثنا الحسن بن الحسين الفقيه الهمذانى قال سمعت جعفر الخلـــدى يقول : قال الجنيد ذات يوم : ما أخرج الله إلى الأرض علما وجعل للخلق إليه سبيلا إلا وقد جعل لى فيه حظاً ونصيباً)[1] .

ويتضح من هذا أن الإمام الجنيد فى تصديه للمعرفه والعلم كان يتصف بالجديه المطلقه وبالحرص الشديد على كل ما يسمع ويقرأ من فنون العلم وألوان المعرفه ، حتى قدر له أن يتحدث بطلاقه ودقه معاً فى كل مايعرض عليه من مسائل .

ولقد اعتقد ابن كثير أن هذه الدقه فى المعانى ، والغزارة فى المعرفه ، ترجع إلى هذه الصله بالأساتذة والتلمذة المخلصة على أيديهم .

ويبرز ابن كثير فكرته هذه فى تعليقه على بعض المسائل التى عرضت للجنيد واستفاضته فى الإجابه عليها .

---

(١) تاريخ بغداد — للبغدادى — ص ٢٤٢

قال : (وكان يعرف سائر فنون العلم ، وإذا أخذ فيها لم يكن له فيها دقة ولا كبوة ، حتى كان يقول فى المسأله الواحدة وجوها كثيرة لم تخطر للعلماء ببال .

قال ابن خلكان : أخذ الفقه عن أبى ثور ويقال : كان يتفقه على مذهب سفيان الثورى ، وكان ابن سريج يصحبه ويلازمه ، وربما استفاد منه أشياء فى الفقه لم تخطر له ببال ، ويقال : إنه سأله مرة عن مسألة . فأجابه فيها بجوابات كثيرة ، فقال : يا أبا القاسم ألم أكن أعرف فيها سوى ثلاثة أجوبة مما ذكرت ، فأعدها على . فأعادها بجوابات أخرى كثيرة . فقال والله ما سمعت هذا قبل اليوم ، فأعده ، فأعاده بجوابات أخرى غير ذلك ، فقال له : لم أسمع بمثل هذا فأملله على حتى أكتبه .

فقال الجنيد : لئن كنت أجريه فأنا أمليه ، أى إن الله هو الذى يجرى ذلك على قلبى وينطق به على لسانى ، وليس هذا مستفاد من كتب ولا من تعلم ، وإنما هذا من فضل الله عز وجل يلهمنيه ويجريه على لسانى ، فقال : فمن أين استفدت هذا العلم ؟ قال من جلوسى بين يدى الله أربعين سنة . والصحيح أنه كان على مذهب سفيان الثورى وطريقه ، والله أعلم)[1] .

وهذا النص مع ماعليه من تحفظ يبديه الإمام الحافظ ابن كثير ، إلا أنه يلفتنا إلى نوع آخر من أنواع العلم يهتم به الجنيد فى إبرز الشخصية الصوفية .

فإذا كان الصوفى مطالب بالتعلم عن طريق الحواس الظاهرة ، والفكر المباشر وميزان العلم ، وقسطاسه الميسور لجميع الخلائق ، فإنه إذا قطع فى التصوف شوطا يفتح الله عليه أبواب الفضل فيجرى على لسانه وقلبه من

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير — جـ ١١ صـ ١١٤

أنواع المعارف مالا يعرف من كتاب ، ولا يعالج بأدوات العلم ووسائل المعرفة المتاحة لسائر البشر من غير الصوفية .

ويشترط لتحصيل ذلك أن تستجمع العارف همته ، وأن يقبل على الله بكليته حتى يفيض الله عليه من العلوم والمعارف من مثل مايختص به أوليائه وأصفيائه .

يقول الإمام الجنيد : (باب كل علم نفيس جليل بذل المجهود . وليس من طلب الله ببذل المجهود ، كمن طلبه من طريق الجود)(١) .

و (قيل للجنيد : ممن استفدت هذا العلم ؟ قال : من جلوسى بين يدى الله تعالى ثلاثين سنة تحت تلك الدرجة . وأومأ إلى درجة فى داره)(٢) .

و (سئل أبو القاسم الجنيد بن محمد عن مسألة فقال حتى أسأل معلمى ثم دخل منزله وصلى ركعتين وخرج فأجاب عنها)(٣) .

و (قال الجنيد بن محمد كنت إذا سئلت عن مسألة فى الحقيقه لم يكن لى - يعنى فيها - منازلة أقول قفوا على . قال فارس : فكان يدخل فيعامل الله بها ثم يخرج ويتكلم فى علمها)(٤) .

(وكان يقول كلام الأنبياء عليهم الصلاة والسلام عن حضور وكلام الصديقين إشارات عن مشاهدات)(٥) .

---

(١) طبقات الصوفية — للسلمى — ص ٣٦
(٢) صفة الصفوة — ج ٢ — ص ٤١٧
(٣) تاريخ بغداد — للبغدادى — ص ٢٤٥
(٤) نفس المرجع — ص ٢٤٦
(٥) الطبقات للشعرانى — ج ١ ص ٨٤

وبعد هذا الكلام الهام الذى يتعلق بالعلم وتحصيله وبالمعرفة تعلما وتعلما ، يتحدث الجنيد عن عنصر آخر من عناصر إبراز الشخصية الصوفية ، وهو علاقة العارف بما سوى الله .

إن ما سوى الله إما أن يكون عرضا ماديا يتعلق الإنسان بتحصيله ، ويرغب الانتفاع به وتملك الأسباب والوسائل إليه .

وإما أن يكون حوادث وطوارىء لها تأثير مباشر أو غير مباشر على النفس البشرية والمزاج الطبيعى .

والإمام الجنيد يحدد موقفه بجلاء من هذين العنصرين :

فالرغبة فى تحصيل المال وعرض الدنيا ينبغى أن لا تكون شغل الصوفى الشاغل ، فقلبه لا يستطيع أن ينشغل بغير الله تعالى ، وعليه ينصح دائما أتباعه وأصفياءه بأن يحددوا مواقفهم من هذه المغريات الملحة (إن أمكنك أن لا تكون آلة بيتك إلا خزفا فافعل . وكذلك كانت آلة بيته)(١) .

وترك أمور الدنيا على هذا النحو ، والعزوف عن الاستمتاع بملاذه والافتتان بمآثرها ، وقد وجد لنفسه أساسا فكريا فى رأى الجنيد وفلسفته .

إن التصوف هو عبارة عن تأسيس الصلة القوية بين الله وبين الصوفى .

وإذا أقيمت الصلة على أساس من الصدق والانسجام ، فإنه لابد أن يكون الصوفى مستعداً منذ اللحظة الأولى أن يقطع النظر عما سوى الله (ما أخذنا التصوف عن القيل والقال ، ولكن عن الجوع ، وترك الدنيا ، وقطع المألوفات والمستحسنات ، لأن التصوف هو صفة المعاملة مع الله تعالى ، وأصله التعزف عن الدنيا .

---

(١) طبقات الصوفية — السلمى — ص ٣٧

كما قال حارث : عزفت نفسى عن الدنيا ، فأسهرت ليلى ، وأظمأت نهارى)(١) .

فإذا شغل الإنسان بالدنيا . وأغرته مفاتنها ومحاسنها ، كانت هذه علامة من علامات إعراض الله عنه إذ أن (علامة إعراض الله عن العبد أن يشغله بما لا يعنيه)(٢) .

وإذا كان تعلق الإنسان بالدنيا سببا لإعراض الله عن العبد ، فإن ترك الدنيا والعزوف عنها من أهم الأسباب التى تورث علم الآخرة ، والحصول عليه .

وتلك مسألة للمريد نفسه ، فهو لابد أن يكون قوى الإرادة ، صلب العزيمة ، بحيث يتمكن من أن يخلع عن قلبه حب الدنيا ، وعن فؤاده الرغبة فى محاسنها ، والتعلق بمفاتنها .

أما إذا كان ضعيف العزيمة ، فإنه لن يتحول من حالة إلى حال أفضل منها مهما كانت علاقته بشيخه ومعلمه فإن القلوب لا تصفو (لعلم الآخرة إلا إذ تجردت من الدنيا فانظر فى ابتداء أمرك على إخراج الدنيا من سرك واحذر أن لا يبقى عليك منها دفين هو كامن فيك فيوقفك ذلك عن النفاذ والترقى ولا يقدر شيخك أن ينقلك عن ذلك خطوة مادمت كذلك فاسمع له وأطلع)(٣) .

ويؤكد الجنيد أن هناك سراً من الأسرار التى أودعها الله هذا الكون ، وهو أن الدنيا إذا انشغل بها إنسان ، وقطع فى البحث عنها أشواطا استغرقت

---

(١) طبقات الصوفية — السلمى — ص ٣٧
(٢) صفة الصفوة - ج ٢ - ص ٤١٨
(٣) الطبقات للشعرانى - ج ١ ص ٨٥

من حياته أو بعض حياته ، فإنه بهذا المجهود المضنى والانشغال القاسى لن يصل فى الدنيا إلى هدوء البال ، وطمأنينة الفؤاد فما (رأيت أحدا عظم الدنيا فقرت عينه فيها أبداً انما تقر فيها عين من حقرها وأعرض عنها)(١)

ونصل من هذا كله الى نقطة هامة لا يخلو التأكيد عليها من فائدة ، وهى أن الصوفى بل المسلم فى تحصيل رزقه عليه أن يأخذ فى الأسباب ثم نفسه بما قسم الله له ، فما قسم له مولاه لابد أن يصل اليه مهما كانت الحواجز والموانع .

وتلك حاله من الرضى ، وترك الصراع وسكون القلب يشيعها الجنيد بين أتباعه ومريديه حتى يرفع عن قلوبهم القلق ، وعن نفوسهم الشك والريب .

وتأكيدا لهذا المعنى نسوق هذا الحوار بين قطب التصوف ، وشيخ الزاهدين ، وبعض محدثيه الذين سألوه (أنطلب الرزق ؟ فقال إن علمتم أى موضع هو فاطلبوه . قالوا : نسأل الله فيه قال : إن علمتم أنه ينساكم فذكروه ، قالوا : أندخل البيت ونتوكل ؟ فقال : التجربة شك ، فقالوا : فما الحيلة ؟ قال ترك الحيلة ، وفى بعض الكتب نسبه هذه الحكايه إلى الخواص)(٢) .

وبعد أن حدد الجنيد موقفه من عرض الدنيا المحسوس ، ومفاتنها الباليه ونحدث عن الصوفى باعتباره تأبى على هذه الأشياء لا تلفته ولا تستهويه ، فهو مقبل بكليته على الله سبحانه وتعالى ترقى بالحديث إلى لون من الرقى فى السلوك الإنسانى ، يعالجه الإمام الجنيد ببراعة يشهد له بها معاصروه ومقارنوه :

---

(١) نفس المرجع - ج ١ ص ٨٥
(٢) طبقات الشافعيه - السبكى - ج ٢ ص ٣٠

إنه ينتقل إلى علاج الوجدان ، وإيقاف النفس على بداية معراجها نحو الحق ، وأوائل درجها إلى السعادة .

إن الإنسان يعيش فى مجتمع ، والمجتمع يرتبط به ارتباط الكل والبعض .

وعلى الإنسان أن يتوقع من هذا المجتمع ما يضاد إرادته ، ولا ينسجم مع أهوائه ورغباته ، كما يتوقع منه ما يخفف عنه وطأة الآلام ، وامتصاص نكبات الدهر ، والوقوف دونه ضد مفاجآت الزمان وطوارق الحدثان .

وللإنسان العادى أن يتوقع من المجتمع الثانية قبل الأولى ، أى أنه يتوقع منه أن يقف إلى جواره ولا يصاده ، وأن يدفع عنه قبل أن يدفع فى وجهه ، وأن ينال من خصومه ولا ينال منه .

وهذه نظرة لا تمت بصلة ، وإنما هى نظرة ذاتية مصلحية يغلفها حنين القرب من الذات بغلاف يجعلها قريبة المنال من عقول البسطاء والدهماء .

أما العارف بالله الذى تربى على مأدبة الحق ، ورضعت نفسه نور اليقين وغذيت روحه بعناصر الثقة والاطمئنان الذى يقبل بها على الحق مسبب الأسباب ، وخالق المطلوب والمرغوب لا يرى ما يراه الرجل العادى ، إنه لا ينظر إلى المجتمع كواهب للسعادة ، ومانح للطمأنينة ، وإنما ينظر إليه باعتباره صاحب قلاقل وفتن ، ومصدر بلاء وشقاء لما ترتب عليه عناصره الأولى من الأنانية وحب الذات .

والنظرة التى يحددها العارف لنفسه على هذا النحو تجعله يتوقع الأذى قبل المصلحة ، والمحنة قبل المنحة فإذا أتى الأمر على ما يتوقع كان ذلك أمر طبيعى ، لا يسبب له ضيقا فى قلبه ، ولا انقباضا فى نفسه .

أما إذا جرت الأمور على العكس من ذلك وهو نادر عزيز ، كان ذلك فضل من الله ونعمة .

وكما يقال هذا فى المجتمع وسلوك الناس ، يقال أيضا فى جميع الكون المحيط وعلاقته بالإنسان الفرد ، كما يقال فى مكونات الجسد المادية ، وتركيب مزاجه المحسوس .

والأمر فى النهاية يرجع إلى أن الصوفى يتوقع المرض قبل الصحة ، ويتوقع من الناس المشاكسة قبل التودد ، ومن الكون كله أن يقلب له ظهر المحن قبل أن ييسر له سبل الراحة فى مشواز الحياة الطويل .

يقول : (أبو الحسن : سمعت الجنيد يقول : ليس يتسع على ما يرد على من العالم ، لأنى قد أصلت أصلا وهو أن الدار دار غم وهم وبلاء وفتنة وأن العالم كله شر ، ومن حكمه أن يتلقانى بكل ما أكره فإن تلقانى بما أحب فهو فضل ، وإلا فالأصل الأول)(١) .

غير أن الجنيد لا يحمل بالسخط أو الكراهية على ما يحيط به من المجتمع والناس ، لكى يريح نفسه ويريح الآخرين ، فيسوق هذه العبارة المخففة التى رواها عنه أبو القاسم النقاش قال : (سمعت الجنيد يقول : الإنسان لا يعاب بما فى طبعه إنما يعاب إذا فعل ما ينافى طبعه)(٢) .

وإذا وقف العارف بالله على هذه الحقيقة الهامة ، فعليه أن لا يحمل تبعات أفعاله لغيره ، وأن يعلم علم اليقين إن خلوص الله إلى قلبه بالبر ، لا يكون إلا بذكره الدائم لمولاه ، وإقباله نكبة الهمة عليه (إن الله يخلص إلى القلوب من بره حسب ما خلصت القلوب به إليه من ذكره فانظر ماذا خالط قلبك)(٣) .

---

(١) صفة الصفوة — جـ ٢ — ص ٤٢٠ ، ٤٢١

(٢) نفس المرجع — جـ ٢ — ص ٤٢٠

(٣) طبقات الشافعية جـ ٢ ص ٣٢

وإذا التمس العارف الرضى عند غير الله ، وتعهد سكون القلب والسعادة فى ساحة غير ساحة الحق تركه الله إلى الخلق ، فنالوه بشر ما يكره واستقبلوه بعكس ما يريد فيشقى شقاء الأبد ويحيى حياة القلق ، وفقدان الطمأنينة ، وحرمان السعادة فى الدنيا والآخرة ، وهو ما يقرره الجنيد فى أحد أقواله (من أشار إلى الله تعالى وسكن إلى غيره إبتلاه بالمحبة وحجب ذكره عن قلبه وأجراه على لسانه فإن انتبه وانقطع الى الله وحده كشف الله عنه المحن وإن دام على السكون الى غيره نزع الله من قلوب الخلائق الرحمة عليه وألبسه لباس الطمع منهم فيزداد مطالبته منهم ، مع فقدن الرحمة من قلوبهم فيصير حياته عجزا وموته كدا وآخرته أسفا ، ونحن نعوذ بالله من الركون الى غيره)(١) :

وهذه الفكرة التى شكلت علاقة الجنيد بسائر أفراد مجتمعه المحيطين به بالإضافة إلى أنها أورثته عقيدة تحمل الأذى من الناس فقد حددت سلوكه مع بنى وطنه وأفراد نوعه تحديداً لا ينقصه الوضوح أو الدقة .

إن علاقة الإنسان مع المجتمع إما أن تكون علاقة إيجابية تقوم على تبادل العلاقات ، وتعاون التودد ، والمقايضة فى الكلمة الجوفاء التى تدخل السرور على نفوس الراغبين .

أو تكون علاقة سلبية تقوم على العزلة ، والبعد عن الناس بقدر الطاقة ، والاستغناء عن غشيان المجالس ، وتبادل المجاملات الاجتماعية .

وليس هناك وسط بين هذا وذاك إلا الصرامة والحزم ، والجدية فى المعاملة ، وهو سلوك بسبب من الأذى أكثر من سابقيه .

فالمرء لكى يعيش فى هدوء وراحة بال ليس أمامه إلا أن يختار أحد هذين الطريقين ، إما أن يتودد ، أو يعتزل ويحجم .

---

(١) الطبقات للشعرانى جـ ١ — ص ٨٤

ويرى الإمام الجنيد أن الاحجام أفضل والعزلة أولى بالإتباع فنادى بالعزلة شعاراً فيقول :

(من أراد أن يسلم له دينه ويستريح بدنه وقلبه فلا يلق الناس فإن هذا زمان وحشة فالعاقل من أختار فيه العزلة) (١) و(مكابدة العزله أيسر من مداراة الخلطة) (٢) .

وهذا التصريح من الإمام الجنيد يوحى بحقيقة هامة ترجع إلى طبيعة الإنسان وسجيته .

إن الإنسان كائن اجتماعى لايحيى إلا فى جماعة ، ولا يتم له وجوده إلا فى مجتمع يتعاور فيه المصالح ، وتتشابك فيه العلاقات .

إلا أن المجتمع إذا طرأ عليه مايفسده كان بينه لا يشكل أى خطر ذا بال فى حياة من يعتزلها .

وإذا كان الإنسان كائنا اجتماعى ، فهو أيضاً كائن متدين .

وعاطفة التدين إذا قورنت بعاطفة الإجتماع ظهر علوها وترفعها كما يظهر أهميتها فى الجانب المثالى للإنسان .

فإذا عجز المجتمع أن يخدم عاطفة التدين فعلى الإنسان أن يختار بين هاتين العاطفتين ، وهو أختيار ليس بالهين الميسور ، وإنما يحتاج الإنسان فيه إلى قوة وإرادة ، وعزيمة وإصرار ، وترجيح مبنى على فكر ثاقب وعقل مستنير ، فهو يختار أكثر العاطفتين نفعا ، وأكثرهما تحقيقاً لذاته ولوجوده المثالى .

ويعبر الجنيد عن هذه الموازنة بدقة بجملة تضم إلى ماسبق له من أقوال فتعطينا الصورة الكاملة لهذه الموازنة .

---

(١) ، (٢) الطبقات للشعرانى جـ١ صـ ٨٤ .

يقول : (المسير من الدنيا إلى الآخرة سهل هين على المؤمن ، وهجران الخلق فى جنب الحق شديد . والسير من النفس إلى الله صعب شديد)(١).

وفكرة العزله عند الجنيد تعنى أنه يعزل نفسه عن الناس ويمسك عن مقابلتهم . ويتوارى عن الخلطة والمؤانسة بغير الله .

وهذا النوع من العزله قريب المنال لمن يدرب نفسه عليه .

إلا أنه كان هناك نوع آخر من العزلة لايقوم على الحبس والاحتباس وإنما يعتمد على عدم الاهتمام بالناس وهو يخالطهم وقلة الاهتمام بهم مع غشيانه لمجالسهم .

وهذا اللون من الاحتباس كان يمثله الأسد بن حارث المحاسبى .

فى كتاب الحلية لأبى نعيم قال .

(سمعت أبا الحسن أحمد بن محمد بن مقسم يقول سمعت أبا محمد الخواص يقول سمعت الجنيد بن محمد يقول : كان الحارث بن أسد المحاسبى يجىء إلى منزلنا فيقول : إخرج معى لصحر . فأقول له : تخرجنى من عزلتى وأمنى على نفسى إلى الطرقات والآفات ورؤيه الشهوات فيقول : إخرج معى ولاخوف عليك . فأخرج معى فكان الطريق فارغا من كل شىء لاترى شيئاً تكرهه فإذا حصلت معه فى المكان الذى يجلس فيه قال لى : سلنى فأقول : له ماعندى سؤال أسألك فيقول : سلنى إعما يقع فى نفسك فتنثال على السؤالات فأسأله عنها فيجيبنى عليها فى الوقت ثم يمضى إلى منزلة فيحملها كتبا فكنت أقول للحارث كثيراً : عزلتى وأنسى وتخرجنى إلى وحشة رؤية الناس والطرقات؟ فيقول لى : كم تقول : أنسى وعزلتى ؟ لو أن نصف الخلق تقربوا منى ماوجدت بهم أنسا ، ولو أن النصف الآخر توادوا على ما استوحشت لبعدهم) (٢) .

(١) طبقات الشافعية للسبكى ج ٢ ص ٣.

(٢) انظر الحلية لأبى نعيم ترجمة الجنيد ص ٢٥٥ ، ٢٥٦ .

ومهما دعى الجنيد إلى العزلة ، فانه لايدعو إلى أن تنقطع منافع العارف وواجباته تجاه من كلف بهم شرعاً . وإنما خلاصة القول فى فكرة الرجل انه لايأبه ولا يعول على من حوله باعتبارهم مصدر سعادته واستقراره ، وهو فى نفس الوقت لاتنقطع منافعه المتصلة بمن أحق به قال حين سئل بمن هم أحق به قال حين سئل عن الحكمة . وبمن تأنس وتستريح وتأوى ؟

(قال: إلى من انحت عن الكل مطامعة وانقطعت من الفضل فى الحاجات مطالبة ، ومن اجتمعت همومه وحركاته فى ذات ربه ، ومن عادت منافعه على سائر أهل دهره) (١) .

وهكذا يتضح بجلاء أن الجنيد فى رسمه لهذا الجانب من جوانب شخصية العارف ، وهو الجانب الذى يتعلق بسلوك العارف تجاه مجتمعه . والكون أجمع أن الجنيد لايتصور عن فراغ فيما يرسم من حدود الشخصية الصوفية وإنما يستطيع أن يوجد المبرر الأيديولى ، والمنطلق الفكرى لكل سلوك سلبى أو إيجابى يطلب الجنيد أن تكون جزءاً أساسيا أو ثانويا فى شخصيه العارف بالله مهما كان موقفنا منه قبولا أو رفضاً .

وينقلنا الإمام الجنيد إلى عنصر آخر من عناصر تكوين الشخصية الصوفية وهو العنصر الذى يتعلق بالممارسات والأعمال ، والتزام حدود الشريعة فيما تكلفنا به من تكاليف وتفرض علينا الانصياع لها ، وعدم الخروج على حدودها المرسومة .

إن التزام حدود الشرع والقيام بالمهام الموكلة إلينا أمر لاينبغى الخروج عليه إذا أردنا أن تكون لنا شخصية إسلامية ، واضحة المعالم بينه الحدود .

إما إذا رام الإنسان القرب من ربه ، وسلوك طريق العارفين ، فإنه

(١) نفس المرجع ص ٢٦٢ .

يجب عليه أن يثقل على نفسه ، وأن يتعب جسده وروحه ، وإن يجاهد ويجتهد فى أداء مايجب ومالا يجب . أى أنه لايقف عند حدود الواجبات بل يجاهد ويجتهد فيما يأتى العبد المسلم من النوافل حتى يحظى بالحب الإلهى .

ويعتقد الجنيد أن الأعمال المبينه على العلم ، والممارسات التى ترفع عن الجهل هى الطريق المحتوم الذى لا بديل له أمام العارفين الصاعدين على معراج القرب .

فهو الذى يقول : (فتح كل باب شريف بذل المجهود)(١) .

وهذا المجهود الذى يبذله الإنسان له جانبان .

أحدهما : إيجابى ، والآخر : سلبى .

والإلتزام الشريعة فى جانبها الإيجابى والسلبى أمر لايستهان به فى تكوين شخصية المسلم) قال الفتوة كف الأذى وبذل الندى)(٢) .

وإذا وصل الإنسان إلى هذا الحد من المنهج التكاملى فى التزام الشريعة فهو جدير باستحقاق لقب العاقل الذى تكامل عقله وفهمه ، فالعاقل هو من لايظهر فى جوارحه شىء قد ذمه مولاه)(٣) .

فالأشياء التى يذمها الله سبحانه وتعالى ولا يرضى عنها ، والإنصراف عنها إلى مايرضى الله عنه ظلت فكرة ماثلة أمام الجنيد يؤكدها فى كل مناسبة كلما حانت الفرصة وتاحت الظروف .

فهو كان يردد فى دعائه إذا خلى بربه (دلنى على رضاك وأخرج من قلبى

---

(١) طبقات الصوفية للسلمى ص ٣٧ .
(٢) طبقات الشافعية للسبكى ج ٢ ص ٣١ .
(٣) راجع نفس المرجع ج ٢ ص ٣٣ .

رضاه واسكن فى قلبى رضاك)(١) .

وفى بعض المناسبات يدعو لغيره حين يسأله الدعوات الصالحات فيقول (جمع الله همك ولاشتت سرك وقطعك عن كل قاطع يقطعك عنه ووصلك إلى كل واصل يوصلك إليه وجعل غناه فى قلبك وشغلك به عن سواه ورزقك أدبا يصلح لمجالسته وأخرج من قلبك مالا يرضى واسكن فى قلبك رضاه ودلك عليه من أقرب الطرق)(٢) .

والجنيد لايهتم بهذه الممارسات على أنها عامل ثانوى فى شخصية الصوفى بل إنه يعتبرها عاملا لاتكتمل شخصية العارف بدونه ، ولاتتضح حدودها إلا بمراعاة العبد باتباع الشريعة .

فى طبقات الشافعية يتحدث الجنيد عن هذا العامل فى إبراز شخصية الصوفى فيقول :

(بنى أمرنا هذا على أربع لاتتكلم إلا عن وجود ولا تأكل إلا عن فاقة ولا تنام إلا عن غلبة ، ولا تسكت إلا عن خشية)(٣) .

وهذه الأشكال والألوان المختلفة من المجاهدة والاشتغال بالعبادة على مختلف أنواعها قد تكون صورة مظهرية لاأساس لها فى الوجدان ولا صدى فى القلوب ، كما يمكن أن تكون صورة أصلة بحيث تعتبر جزء من تكوين العارف لايمكنة الإنسلاخ عنه :

ولاشك أن الاحتمال الثانى أحسن الاحتمالين وأكثرهما رقيا وكمالا

---

(١) نفس المرجع ج ٢ ص ٣٣ .
(٢) نفس المرجع ج ٢ ص ٣٤ .
(٣) المرجع السابق ج ٣ ص ٣٦ .

ولكى يكون العارف على هذه المرتبة الثانية ، فإنه لا يكفى أن يلتزم التزاما ظاهريا بحدود الشريعة فى كل ما يأتى وما يدع ، وإلا لكان عمله أجوفا ، وعبادته نوع من الشقشقة الفارغة التى لا معنى لها ولا روح فيها .

ولكى يحتفظ لعبادته بالروح والحياة ، فإنه لابد أن يؤسسها على قاعدة صلبة من الإخلاص ومراعاة الحق فى حركاته وسكناته وهو أمر لا يمل الجنيد من الدعوة إليه ، والتنفير من ماعداه .

فهو يقول : (إذا رأيت الصوفى يعبأ بظاهرة فاعلم أن باطنه خراب)(١)

ويقارن بين حالى الصادق والمرائى فيقول : (الصادق يتقلب فى اليوم أربعين مرة ، والمرائى يثبت على حالة واحدة أربعين سنة (٢) .

ويحذر الجنيد من أن يظهر الإنسان بجانبين من الأخلاق متناقضين فمن سوء الطباع أن يكون الانسان إنسانا يخالف ظاهره باطنه) :

(احذر أن تكون ثناء منشوراً وعيبا مستوراً) (٣) .

وليس الإخلاص وحده هو العامل النفس الوحيد الذى ينبغى أن يتوفر للعمل الصادق لدى الأفراد ، وانما هناك عامل آخر هام ، وهو القصد الى الفعل أو النية .

والقصد الى الفعل أو النية الصادقة والعزم الأكيد لو لم تتوافر للفعل لأتى الفعل على شىء من الصدفة والارتجال .

والصدفة والارتجال تسحب عن الفعل امكانيه إضفاء الشرف على فاعله ، أو الأخذ بيده على سلم الرقى الأخلاقى .

---

(١) الطبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٤ .

(٢) طبقات الشافعيه للسبكى ج٢ ص ٣١ .

(٣) صفه الصفوة ج٢ ص ٤٢٠ .

فهما أتى الإنسان من فعل يشبه بظاهره أفعال الأخيار ، وأعمال المتيقنين فإنه لا قيمة له بغير النية ، والقصد إلى الفعل قصدا واعياً مفهوم الوسائل والغايات .

وإذا كانت النية صادقة نال صاحبها من التوفيق بقدر ما فى نيته من صدق وإخلاص كما يقول أبو القاسم الجنيد : (من فتح على نفسه باب نية حسنة فتح الله عليه سبعين باباً من التوفيق ومن فتح على نفسه باب نية سيئة فتح الله عليه سبعين باباً من الخذلان من حيث لا يشعر)(١) .

ويبدو لنا الآن أن الإمام الجنيد لا يميل إلى فكرة التفريق بين العمل الظاهرة ، وبين الوجدان .

فالوجدان أساس قلبى ، والعمل مظهر شكلى يرتبط بوشائج قوية بما يستشعره الإنسان فى وجدانه ، ويمد بسبب أصيل إلى باطن الإنسان حتى يعتمد على ما لديه من تصديق قلبى ، ودافع نفسى .

وهذه الفكرة المتكاملة تبقى معضلة كلما حاول الإنسان أن يترقى على سلم الكمال ، فشهوات الإنسان الفردية والجماعية قد تنحرف به عن طريق الجادة وملذاته ورغباته قد تقعد به دون غاياته وأهدافه .

ومن هنا فإن على الإنسان الذى رام القرب من الله أن يدرك أن طريق التصفية شاق وطويل ، وبحر المحبة لجة عميقه غرق فيها الأكثرون وما نجا منها إلا الأقلون .

قال الجنيد رامزا إلى هذه الصعوبات وأمثالها .

(أعلم يا أخى أن الوصول إذا ما سألت عنه مفاوز مهلكة ومناهل متلفة ، لا يسلك إلا بدليل ، ولا تقطع إلا بدوام ورحيل ، وأنا واصف

---

(١) الطبقات الشعرانى ج ١ ص ٨٥

لك منها مفازة واحدة فافهم ما أنعته لك منها وقف عندما أشير لك فيها واستمع لما أقول وافهم ما أصف ، إعلم أن بين يديك مفازة إن كنت ممن أويد بشيء منها وأستودعك الله من ذلك ، وأسأله أن يجعل عليك واقية باقية فإن الحظر فى سلوكها عظيم الأمر المشاهد فى الممر بها جسيم فإن من أوائلها أن يوغل بك فى فيح برزخ لا أمد له إيغالا ويدخل بك بالهجوم فيه إدخالا وترسل جو بهجته إرسالا ثم تتخلى منك لك ويتخلى منك له فمن أنت حينئذ أو ماذا يراد بك وماذا يراد منك ، وأنت فى محل أمنه روع وأنسه وحشة وضياؤه ظلمة ، ورفاهيته شدة ، وشهادته غيبة ، وحياته ميتة لا درك فيه لطالب ولا مهمة فيه لسارب ولا نجاة فيه لهارب وأوائل ملاقاته اصطدام وفواتح بدائعه احتكام وعواطف بمره احترام فإن غمرتك عوامره أنتفتك بوادره وذهب بك فى الإرتماس وأغرقتك بكثيف الانطماس فذهبت سفالا فى الانغماس إلى غير درك نهاية ولا مستقر لغاية فمن المستنفذ لك مما هنالك ومن المستخرج لك من تلك المهالك ؟ وأنت فى فرط الإياس من كل فرج مشوه بك فى إغراق لجة اللجج ؟ فأحذر ثم أحذر فكم من متعرض اختطف ومتكلف انتصف وأتلف بالعزة نفسه وأوقع بالسرعة حتفه جعلنا الله وإياك من الناجين ولا أحرمنا وإياك ماخص به العارفين وأعلم يا أخى أن الذى وصفته لك من هذه المفاوز وعرضت ببعض نعته إشارة إلى علم لم أصفه وكشف العلم بها يبعد ، والكائن بها يفقد نخذ فى نعت ماتعرفه من الأهوال وما يبلغه النعت والسؤال ويوجد فيه المقاربين والأشكال فإن ذلك أقرب بظفرك وابعد من لحظك ، وأحذر من مصادمات ملاقاة الأبطال والهجوم على حين وقت النزال ، والتعرض لأماكن أهل الكمال قبل أن تمات من حياتك ثم تحيي من وفاتك وتخلق خلقاً جديداً وتكون فريداً وحيدا وكل ماوصفته لك إشارة إلى علم ماتريده(١)) .

(١) الحلية لأبى نعيم – ترجمة الجنيد ص ٢٥٩ ، ٢٦٠

ولعلنا مع الجنيد قد وصلنا إلى تصور كامل للعمل الأخلاقى والشرعى على طريق التصوف ، والوصول إلى الله .

غير أننا لانستطيع أن نترك هذا المجال بغير أن نلفت الأنظار إلى الدافع أو الباعث الذى يقض مضجع العارف ويلفته إلى العمل كلما خلودت نفسه الأمارة بالسوء إلى الراحة والسكون .

وهذا الباعث يصدر من اتجاهين أساسيين هما : الحياء ، والمقارنة بين النعمة ورد الفعل .

إن الحياء من الله سبحانه وتعالى يقوم على رؤية كاملة لموقف الإنسان مع ربه ، وموقف ربه معه . والمقارنة بين الموقفين تسبب الحياء والخجل ، وبهذا المعنى يجيب الجنيد عندما سئل عن الحياء قال : (رؤية الآلاء ورؤية التقصير يتولد منهما حالة تسمى الحياء(١)) .

وإذا أصبح الحياء صفة للنفس أورثها الانكسار ، وأذهب عنها السرور بالمنة وهو مايشير إليه الشيخ فى موضع آخر قال : (الحياء من الله عز وجل أزال عن قلوب أوليائه سرور المنة(٢)) .

ومن جهة أخرى فإن العارف يجب عليه أن يكون مفتوح العين يقظ القلب منتبه الفؤاد لكل نعمة ينعم الله بها عليه .

فالنعمة تستوجب الشكر ، وإنه لمن الفكود ونكران الجميل أن تبارز من أنعم عليك بالعصيان .

(١) طبقات الشافعية للسبكى : حـ ٢ ص ٣١
(٢) طبقات الصوفية للسلمى – حـ ص ٣٧

وأدخل فى باب الشكر ان أن تعصى من أنعم عليك بنعمه ، وتتخذ ما أعطاك من المنح وسيلة لتباروه بها .

وهذا المعنى الساقط فى ميزان الأخلاق يلحظه الجنيد فى تعريفه للشكر كعنصر لا يتأتى شكر النعمة مع وجوده .

حكى البغدادى بالسند إلى عيسى بن كاسة قال : (قال : الجنيد سألنى سرى السقطى ما الشكر ؟ فقلت أن لا يستعان بنعمه على معاصيه فقال : هو ذا يا أبا القاسم) .. وبالسند كذلك إلى أبى محمد المرتعش يقول : (قال : الجنيد كنت بين يدى السرى السقطى ألعب وأنا ابن سبع سنين وبين يديه جماعة يتكلمون فى الشكر فقال لى ياغلام ما الشكر ؟ فقلت أن لا يعصى الله بنعمه فقال لى أخشى أن يكون حظك من الله لسانك . قال الجنيد : فلا أزال أبكى على هذه الكلمة التى قالها السرى لى[1]) .

على أننا لا نسمح لهذه الكلمة الأخيره فى نهاية تصريح الجنيد أن تمر دون أن تعطينا دلالتها التاريخية .

إن الجنيد قد بكى ، وما زال يبكى على تعليق خاله (أخشى أن يكون حظك من الدنيا لسانك) .

إن من سوء الطالع لعالم من العلماء أو إمام من الأئمة أن يكون حظه من قيادته مقتصرا على الجانب النظرى دون أن يكون له من الواقع التاريخى مايكون بمثابة العمل التطبيقى لما يتفوه به من المعارف والعلوم ، ومن يقتصر على هذا الجانب دون العمل التطبيقى يكون إنساناً ناقصاً يبتعد كثيرا عن مستوى القيادة حتى ولو قدرت له ، ويهبط عن مستوى المسئولية حتى ولو سيقت إليه .

---

(١) تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ـ ص ٢٤٤ ، ٢٤٥

ولهذا السبب وحده تخوف السرى السقطى ، ولهذا السبب ذاته انهمرت دموع الجنيد بلا انقطاع .

ولقد حرص الجنيد كل الحرص فى حياته الممتدة أن لا يكون حظه من الله لسانه ، فعمل واجهد نفسه فى العمل ، وتمكن من نفسه فاقتادها إلى الله وأحسن قيادها ، وتحكم فى شهواته وملاذه فاحسن إحكامها فكان يقوم إلى الله مصلياً فلا يفتر ولا تخور قواه ، وكان يجافى الفراش وطلق الدنيا من أجل مولاه .

ونحن نجتزىء هنا جانباً من أفعاله وأعماله مستيقنين باستغناء القارىء فى هذا الجانب بما قدمنا له من نقل آثاره .

(قال السلمى : وسمعت جدى إسماعيل بن نجيد يقول : كان الجنيد يجىء كل يوم إلى السوق فيفتح حانوته فيدخله ويسبل الستر ويصلى أربعمائة ركعة ، ثم يرجع إلى بيته)[1] .

وقال القشيرى : سمعت أبا على الدقاق يقول (رؤى فى يده « الجنيد » سبحة فقيل له أنت مع شرفك تأخذ بيدك سبحة ، فقال : طريق به وصلت إلى ربى لا أفارقه[2]) .

والشواهد على أعمال الجنيد لا تكاد تنقطع على ألسنه الرواة والمؤرخين وظل متمسكاً بممارسته للعبادة حتى أغمض الموت جفنيه .

وكان رحمه الله يغلظ فى القول إذا أثيرت أمامه تلك المشكلة الفلسفيه

---

(١) صفة الصفوة لابن الجوزى حـ ٢ ص ٤١٧ / ٤١٨

(٢) الرسالة القشيريه — للقشيرى — ص ٣٢

التى فشت فى المجتمع فى زمانه واعتنقها المستهترون بأصـــول الشريعة وتعاليمها وحجتهم أن الشريعة إنما هى لاستكمال نفس الدهماء وإصلاح إعوجاج نفوسهم ، فإذا ما كملت النفس وصلح إعوجاجها فقدت الأعمال مبررها بالنسبة لهؤلاء المستكملين فى نفوسهم .

حكى القشيرى قال : « سمعت محمد بن الحسين رحمه الله يقول سمعت أبا بكر الرازى يقول : سمعت أبا محمد الجريرى يقـــول : سمعت محمد بن الحسين يقول : سمعت أبا نصر الأصبهانى يقول . سمعت أبا على الروذبارى يقول : سمعت الجنيد يقول لرجل ذكر المعرفة وقال . أهل المعرفة بالله يصلون إلى ترك الحركات من باب البر والتقرب إلى الله عز وجل فقال الجنيد : إن هذا قول قوم تكلموا بإسقاط الأعمال وهى عندى عظيمة ، والذى يسرق ويزنى أحسن حالا من الذى يقول هذا ، فإن العارفين بالله تعالى أخذوا الأعمال عن الله تعالى وإليه رجعوا فيها ولو بقيت ألف عام لم أنقص من أعمال البر ذرة إلا أن يحال بى دونها(١) » .

وهكذا استطاع الجنيد أن يرسم أمام العارفين الطريق إلى الله معبده عبر الشرع المجيد بالقول والتطبيق .

غير أنه إلى الآن لم يستكمل ملامح الشخصية الصوفية . وإنما أردنا أن نعرب بما ذكرنا سلفاً عن بعض ملامح الشخصية الصوفية عند الإمام الجنيد تاركين بعض الملامح الأخرى لمناسبة غير هـذه المناسبة حين نجد لها من الفراغ وقتاً يناسبها .

ولعلك قد لاحظت معى إلى الآن أن الشخصيه الصوفية عند الإمام

---

(١) الرسالة القشيريه — من ٣١

الجنيد ليست شخصيه سلبيه على أى مستوى من المستويات ، فهى شخصيه إيجابيه حين نتحدث عن نظريه المعرفه وتحصيل العلوم ، وهى شخصيه إيجابيه كذلك حين تكون على مستوى العلاقات الاجتماعيه نظريه وتطبيق ، وهى إيجابيه من جهه ثالثه حين نتحدث عن العلاقه بين الإنسان وربه .

ولعل هذا يكون مؤشرا قوياً أمام الباحثين ليقيموا التصوف فى الإسلام بمعايير تتلائم معه وأساليب علميه ترتفع عن الهوى وتستظل بلواء الحيدة والعدالة .